درسٌ من النبوّة

للاستاذ مصطفى صادق الرافعى

قالوا : إنه لما نصر الله تعالى رسولَه وردَّ عنه الأحزاب وفتح عليه قُرَيْظَةَ والنَّضِير(١) ظن أزواجُه صلى الله عليه وسلم أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم وكنّ تسعَ نسوة : عائشة ، وحَفْصة ، وأم حبيبة ، وسَوْدة ، وأم سَلَمة ، وصَفية ، وميمونة ، وزينب وجُوَيْرية ؛ فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله ، بناتُ كسرى وقيصر فى الحَلْى والحُلَل والإماء والخَوَل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق . وآلَمْنَ قلبَه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجَهم ؛ فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه ، وذلك قولُه تعالى : « يا أيها النبيُّ قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسرِّحْكن سَراحاً جميلا(٢) . وإن كنتن تردنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيما »

قالوا : وبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة (وهى أحبهن إليه) فقال لها : إنى ذاكرٌ لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك أستأمر أبويَّ ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ورسوله ثم تتابعن كلُّهن على ذلك ، فسمّاهن الله « أمّهاتِ المؤمنين » تعظيما لحقهن وتأكيداً لحرمتهن وتفضيلاً لهن على سائر النساء .

* * *

هذه هى القصة كما تُقرأ فى التاريخ وكما ظهرت فى الزمان والمكان ، فلنقرأها نحن كما هى فى معانى الحكمة ، وكما ظهرت فى الإنسانية العالية ، فسنجد لها غَوْراً بعيداً ونعرف فيها دلالةً سامية ، وتتبين تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق . وهى قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوى على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد ، ومن أجلها ذكرت فى القرآن الكريم ، لتكون نصًّا تاريخياً قاطعاً يدافع به التاريخ عن هذا النبى العظيم فى أمر من أمر العقل والغريزة ؛ فإن جهلةَ المبشرين فى زمننا هذا وكثيراً من أهل الزيغ والإلحاد وطائفةً من قصار النظر فى التحقيق يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات ؛ ويتطرّقون من هذا الزعم إلى الشبهة ، ومن الشبهة إلى سوء الظن ، ومن سوء الظن إلى قبح الرأى ، وكلهم غبى جاهل ؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه ، لما كانت هذه القصة التى أساسُها نفى الزينة وتجريد نسائه جميعاً منها ، وتصحيحُ النيّة بينه وبينهن على حياة لا تحيا فيها معانى المرأة ، وتحت جوّ لا يكون أبداً جوّ الزهر . . . وأمرُه من قِبَل ربه أن يخيرهنّ جميعاً بين سَراحهن فيكنّ كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكهن فلا يكنّ معه إلا فى طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتُها

فالقصة نفسها ردٌّ على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغةَ الشهوة ولا سياسةَ معانيها ولا أسلوبَ غضبها أو رضاها . وماههنا تمليقٌ ولا إطراء ولا نعومةٌ ولا حرصٌ على لذة ولا تعبير بلغة الحاسة ؛ والقصةُ بعدُ مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبهُ معنى من حرارة القلب ، ولا أثر ولا بقيةُ أثر من ميل النفس ، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم . وهى على منطق آخر غير المنطق الذى تُستمال به المرأة ؛ فلم تقتصر على نفى الدنيا وزينة

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك فى أواخر سنة خمس للهجرة

(٢) السراح : الطلاق ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة — وهو يختلف حسب السعة والإقتار

نيا عنهن ، بل نفت الأمل فى ذلك أيضاً إلى آخر الدهر باتت معناه فى نفوسهن بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : فى أمره ونهيه ، والرسول فى شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة تكاليفها ومكارهها . فليس هنا ظرف ولا رقة ولا عاطفة لا سياسة لطبيعة المرأة ، ولا اعتبار لمزاجها ولا زُلفى لأنوثتها ؛ هو تخيير صريح بين ضدين لا تلوّن بينهما حالةٌ تكون بهما معاً ، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدة لا أكثر

والحريص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتى بشيء من هذا ، ل يخاطب فى المرأة خيالها أولَ ما يخاطب ، ويُشبعه مبالغةً وتأكيداً ويُوسعه رجاء وأملا ، ويقرب له الزمن البعيد حتى لو كان فى أول الليل ، وكان الخلاف على الوقت لحقق له أن الظهر بعد ساعة .

* * *

وبرهان آخر وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج نساءه لمتاع مما يمتّع الخيالُ به ، فلو كان وضعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلاّ بالزينة وبالفن الناعم فى الثوب والحلية والتشكّل كما ترى فى الطبيعة الفنية ، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا فى المسرح المهيأ بمناظره وجوّه . . . وقد كان نساؤه صلى الله عليه وسلم أعرف به ؛ وها هو ذا ينفى الزينة عنهن ويخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها . فهل ترى فى هذا صورة فكر من أفكار الشهوة ؟ وهل ترى إلا الكمال المحض ؟ وهل كانت متابعةُ الزوجات التسع إلاّ تسعةَ برهانات على هذا الكمال ؟

وكأن النبى صلى الله عليه وسلم يلقى بهذه القصة درساً مستفيضاً فى فلسفة الخيال وسوء أثره على المرأة فى أنوثتها ، وعلى الرجل فى رجولته ، وأن ذلك تعقيد فى الشهوات يقابله تعقيد فى الطبع ، وكذبٌ فى الحقيقة ينشأ عنه كذب الخلُق ، وأنه صرفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام والأمانى والطيش والبطر والفراغ ، وتعويدُها عاداتٍ تفسد عاطفتها وتُضيف إليها التصنع فتُضعف قوتَها النفسيةَ القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها ، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها

وكل محاسن المرأة هى خيالُ متخيل ولا حقيقة لشيء منها فى الطبيعة ، وإنما حقيقتها فى العين الناظرة إليها فلا تكون امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتون بها ليس غير . ولو ردّت الطبيعة على من يُشبّب بامرأة جميلة فيقول لها : هذه محاسنك وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا ؛ لقالت له الطبيعة : بل هذه كلها شهواتك أنت[1] . . . .

وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر فلا يفتنه جمال الصورة ولا سحر الشكل ولا فراهة المنظر ، وإنما يفتنه صوت المرأة وبحسّها ورائحتها . فلا حقيقة فى المرأة إلا المرأةُ نفسُها ؛ ولو أخذتْ كل امرأة على حقيقتها هذه لما فسد رجل ولا شقيَت امرأة ، ولانتظمت حياة كل زوجين بأسبابها التى فيها . وذلك هو المثل المضروب فى القصة

يريد النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم أمته أن تحكّمَ الفريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل ، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الفريزة واختيارها كانت حياتها استجابةً لجنون الرجل ، وملأتها معانى التزيد والتصنُّع ، فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التى أكثرها فى الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال ، ويردّها إلى أضداد هذه الصفات فيقوم أمرها بعدُ على الأثرة والمصلحة والتفادى والضجر والتبرم والإلحاح والإزعاج ، ويضعف معنى السلب الراسخ فى نفسها من أصل الفطرة فيتبدل حياؤها وفى الحياء ردها عن أشياء ، ويقل إخلاصها وفى الإخلاص رد لها عن أشياء أخرى ، ويكثر طمعها وفى قناعتها مُحاجَزةٌ بينها وبين الشر

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنعة ؛ فإذا كثر المتصنعات لا يكون من النساء مشاكل فقط ، بل تكون من حُلول المشاكل معهن مشاكلُ أخرى . . . .

* * *

ولُبابُ هذه القصة أن النبى صلى الله عليه وسلم يجعل نفسه فى الزواج المثلَ الشعبى الأكمل كما هو دأبه فى كل صفاته الشريفة ،

(١) بسطنا هذا المعنى فى كثير مما كتبناه وخاصة فى كتاب : (السحاب الأحمر)

فـ ـ تكون زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ليكون المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التى تبرع البراعة كلها فى الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا تكون المرأة زينةً تطلب زينة لتتم بها فى الخيال ، ولكن إنسانية تطلب كمالها الإنسانى لتتم به فى الواقع

وهذه الزينة التى تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتقعُّد ، وكلما أسرفت فى هذه أسرفت فى تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعانى كالأظافر والمخالب والأنياب ، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحية التى تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول وتقول .

* * *

وإنما يكون أساسُ الكمال الإنسانى فى الإنسان العامل المجاهد لا يحصر نفسه فى شىء يسمى متاعاً أو زينة ، ولا يقدر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الغاية فى هذا ، دخل عليه مرة عمر بن الخطاب فاذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معلق [1] ، فابتدرتْ عيناى ، فقال ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبى الله ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزائنك [2] ؟

وجاء مرة من سفر فدخل على ابنته فاطمة رضى الله عنها فرأى على بابها سترا وفى يديها قُلْبين من فضة [3] فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع أبيها ، فسأله فى ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : من أجل الستر والسِّوارين

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الستر [1] ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلالاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت به فضعه حيث ترى . فقال لبلال : إذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصُّفة [2] . فباع القُلبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم

يا بنت النبى العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإنَّ فى المسلمين فقراء

أى رجل شعبى على الأرض كمحمد صلى الله عليه وسلم فيه للأمة كلها غريزةُ الأب ، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذى لا يتحول ، وفيه الطبيعةُ التامة التى يكون بها الحقيقىُّ هو الحقيق

يا بنت النبى العظيم ! إن زينةً بدرهمين ونصف لا تكون زينة فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقةً بدرهمين ونصف إن فيها حينئذ معنى غير معناها ؛ فيها حقُّ النفس غالباً على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً على الايمان بالخير ؛ وفيها ما ليس بضرورى قد جار على ما هو الضرورى ؛ وفيها خطأ من الكمال إن صح فى حساب الحلال والحرام لم يصح فى حساب الثواب والرحمة

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم . إن مذهبكم ما لم تُحيِه فضائلُ الإسلام وشرائعه ، إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط . . . كل يوم تحلون وكل يوم تربطون ولا ثمرة فى الطبيعة

* * *

ليست قصة التخيير هذه مسئلةً من مسائل الغنى والفقر فى معانى المادة ، ولكنها مسئلة من مسائل الكمال والنقص

(١) كيس من جلد كالذى يتخذه العرب وعاء

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه صلى الله عليه وسلم وقد بسطنا فلسفة هذه المعانى فى مقال (سمو الفقر) من مقالاتنا فى الرسالة

(٣) القلب بالضم سوار من الفضة غير ملوى هو الذى يقال له اليوم (الغويشة) وهو خفيف

(١) أى مزقته ؛ وكذلك رأى مرة ستراً على باب عائشة رضى الله عنها فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا . أرسلى به إلى آل فلان

(٢) الصفة الغرفة وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل بعينه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه

، معانى الروح ؛ فهى صريحة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم ستاذ الإنسانية كلها ، واجبه أن يكون فضيلة حية فى كل حياة ؛ أن يكون عزاء فى كل فقر ، وأن يكون تهذيباً فى كل غنى ، من ثم فهو فى شخصه وسيرته القانون الأدبى للجميع

وكأنه صلى الله عليه وسلم يريد ليعلّم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهى ، ولكن بعمل عظمائها فى الأمر والنهى ، وأن الحاكم على الناس لا ينبغى أن يحكم إلا إذا كان فى نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساسَ المتسلط لا الخاضع ، ليكون أول استقلاله استقلال داخله

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى فى ظاهر القصة ، ولكنها جرأةُ النفس العظمى فى تقرير حقائقها العملية

* * *

وتنتهى القصة فى عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته صلى الله عليه وسلم « أمهات المؤمنين » بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة . وعلماء التفسير يقولون إن الله تعالى كافأهن بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشىء ولا فيه كبير معنى ، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الاعجاز ، فإن الزوجة الكاملة لا تكمل فى الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وصفُها مع رجلها كوصف الأم ترى ابنها بالقلب ومعانيه لا بالغريزة وحظوظها . فكل حياة حينئذ ممكنةُ السعادة لهذه الزوجة ، وكل شقاء محتملٌ بصبر ، وكل جهاد فيه لذتُه الطبيعية ، إذ يقوم البيت على الحب الذى هو الحب الخالص لا المنفعة ، وتكون زينة الحياة وجود الحى نفسه لا وجود المادة ، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعى كوفاء الأم ، وذلك خلُق لا يعسر عليه فى سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها

وآخر ما نستخرج من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة :

بحَسْب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقةَ نفسه الطيبة وإن لم يجد حقيقةَ كسرى ولا قيصر ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

عظة الهجرة

للاستاذ عبد الرحمن شكرى

يتخذ الناس من عبر الحوادث مثلاً للكمال فى الخلق وشعاراً يذكر بما ينبغى أن يسلكوه وما يجب التنزه عنه من عمل أوقول ، ويكون لهم كاللواء يجمعون أمرهم حوله ، وكالحكمة يسترشدون بهداها ورشدها ، وكالحداء للركب يعينهم فى قافلة الحياة ، وكالرمز يرجعون الى مدلوله فى كل أمر حازب ، وكالعماد يعتمدون على قوته وعونه ، وكالامام يأتمون به

وقد لا يستطيع المرء فى كل حال من أحوال الحياة ألا يزايل شعاره ، فقد تخونه نفسه أو تخونه الحوادث فيسلك مسلكاً لا يشاكل شعاره ، ولكن المرء بخير اذا لم يمزق شعاره يأساً من أجل عجز عارض لا يلبث أن يزول ؛ والمرء بخير أيضاً مهما تعددت سقطاته عن شعاره ومثله ما دام له مثل يأتم به فى فعله وقوله ؛ واذا كان اتباعه له فى القول أكثر من اتباعه له فى الفعل ، فهذا أيضاً خير من ألا يكون له مثل يقدسه ، وله فى نفسه أثر قل أو كثر

وفى الهجرة النبوية لنا مثل وشعار ورمز اذا اعتبرنا بأسبابها وحوادثها ؛ وهو رمز ذو معنيين : معنى فيما ينبغى أن نتجنبه من مشابهة المشركين فى اضطهاد الحق والعقيدة النفسية والفكرة التى تنبعث منها ، ومعنى فيما ينبغى أن نتخلق به من الائتمام بالنبى صلى الله عليه وسلم فى ابائه مزايلة الحق وصونه ، وفى نصرته بالرغم من اضطهاد وضيق ، وفى الاعتماد على الله فى الشدة

ولكل من المعنيين فى الحياة شواهد وأمثلة وأمور تستدعى